التضمين الأدبي في شعر ابن زمرك الغرناطي (ت ٧٩٧هـ)

ميامين سعد منصور صبار العامري أ.د علي كاظم محمد علي المصلاوي.

جامعة كربلاء / كلية التربية للعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية

الملخص:

تطرقت هذه الدراسة التضمين الأدبي في شعر ابن زمرك الغرناطي؛ لذا من الصعوبة أن يتجرد الشاعر من ثقافته الشعرية التي تنتمي بالضرورة إلى ثقافة أمته التي ينتمي إليها؛ ولذلك دأب الشعراء ينهلون من موروثهم الشعري مخلدين شعرهم؛ بسبب التعصب المجتمع النقدي القديم، فضلاً عن التضمين من تراثهم الذي يلحق الموهبة تمكنا لا نظير له في مجال القول وإحكامه وشعريته وانسجامه وبلاغته وبيانه.

Abstract :

This study dealt with the literary inclusion in the poetry of Ibn Zemreq Al-Granati; therefore, it is difficult to deprive the poet of his poetic culture, which necessarily belongs to the culture of his nation to which he belongs; Their legacy, which inflicts talent, has enabled us to have an unparalleled position in the field of saying, its tightness, poetry, harmony, eloquence and statement.

التضمين:

أحد المفاهيم البلاغية التي حظيت باهتمام الدرس البلاغي والنقدي القديم والحديث، ولم يغفل النقاد قديما أو حديثا في تحديد المصطلح، فأطلقوا عليه مصطلح التضمين؛ لذا فعرفه أحمد مطلوب: بأن يضمّن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر الغير مع الإشارة إليه إن لم يكن مشهوراً لدى نقاد الشعراء[١]، فالتضمين له أهمية خاصة كما أشارت إليه الدكتورة رجاء عبد إلى أن التضمين فوائد وأنه يأتي " لتوثيق الدلالة أو لتأكيد موقف وترسيخ المعنى، أو تدعيم النص إما بتضمين الصريح أو الإشارة والتلميح ... "[٢].

وهذا يعني أن التضمين مفهوم صعب لا يتقنه إلا الشاعر المجيد وتتضح هذه الصعوبة على مدى تمكن الشاعر أن يضمن شعر سواه أو يجعل ذلك البيت المضمن أو سواه جزءاً من بنية القصيدة، فضلاً عن ذلك إيصاله إلى المتلقي، الذي يجب على الشاعر استيعاب ما اشتمله من أبيات سواه[٣]؛ لذلك اتجه شعراء الأندلس إلى تضمين شعراء المشارقة حتى اتبعوا منهجهم؛ لذا يقول ابن بسام: " إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب ..."[٤].

وقد عُرفَ شعراء هذا العصر بكثرة استعمالهم لأسلوب التضمين في إشعارهم، وهذا يرجع إلى عامل التأثر والإعجاب، ومن هؤلاء الشعراء ابن زمرك فقد استعمل التضمين في أشعاره لإعجابه بالشعراء الذي سبقوه، كان تضمينه إما أن يكون نصياً أو بالمعنى، وسنحاول أن نقف عليها من خلال استعراض الأبيات الشعرية التي وردت في ديوان الشاعر.

أولاً: التضمين النصي المباشر:

ونقصد به ما ضمنه الشعراء من أبيات تامة لشعراء المشرق، ولكن أن يكون المتلقي على علم بهذا التضمين، وهذا النوع من التضمين الجيد وأجود منه، وأن يصدق الشاعر البيت المضمن عن معنى قائله إلى معناه(٥).

ومن تضمينه في التهنئة بختان حفيدي الغني بالله(٦):

[الطويل]

وَلَوْ أَنَّنِي أَدْرَكْتُ أَعْصَارَ مِنْ مَضَى لَمَا قَالَ فِيهَا الشَّاعِرُ الْمُتَخَايِلُ

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَـــــــــــــــــــــــــانُهُ لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِـــــــــــلُ

استحضر الشاعر ثقافته الأدبية من خلال تضمينه لبيت أبي العلاء المعري(٧):

يُهِم الليالي بعضُ ما أنا مُضْمِرٌ ويُثْقِلُ رَضْوَى دونَ ما أنا حاملُ

وإني، وإن كنتُ الأخيـــــــــــر زَمانُهُ لآتٍ بما لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِـــــــــــــــــلَ

إن استحضار الشاعر ابن زمرك وتضمينه لأحد أبيات أبي العلاء المعري يبين مدى قيمة وأهمية النص القديم عند ابن زمرك، ويمكن نبين من هذا التضمين أمور عدة منها الصورة الشعرية التي رسمها أبي العلاء تقوم على مدح الذات ولم يتطرق للآخر، في حين الصورة الشعرية لابن زمرك نصبت على ومدح الآخر، أي أن المديح لسيده غالباً على البيت الشعري، البيت عند أبي العلاء الذي ورد في المقطع الأول في حين ابن زمرك أورده متأخراً في النص، التضمين بين الجرأة الكافية عند الشاعر الأندلسي في مجاراة أهل الشرق لكنه في الوقت ذاته اعتراف منه بعظمة شعراء المشرق، نعم لو أنه أعلن ابن زمرك في البيت الذي سبق التضمين انه لو كان موجوداً في ذلك الزمان لما استطاع أبي العلاء ابن ينشد هذا الشعر، وبهذا يكون النص القديم هو المثل الأعلى كي ينهل منه النص الحديث الذي قد يفوقه لكن صاحب السبق هو الرائد بذلك.

فالشاعر هنا ضمن بيت كامل وهذا ما يدل على ثقافة الشاعر الأدبية، وشدة إعجابه بابي العلاء المعري سبب جعله يستدعي البيت المعري.

ومن تضمين آخر قوله في وصف مجلس الغني بالله(٨):

[الكامل]

الشَّمْسُ أَنْتَ إِذِ المُلُوكُ كَوَاكِبٌ وَالشَّمْسُ تُهْدِي نُورَهَا لِلْكَوْكَبِ

هنا ضمن قول النابغة الذبياني في مدح النعمان والاعتذار منه[٩]:

فإنَكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكَ كَوَاكِبٌ إذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

اتكأ الشاعر على قول النابغة في مدح النعمان بن المنذر والاعتذار له، ولكن ابن زمرك غير في الألفاظ في هذا البيت الشعري، ويتضح من هذا التغيير في أن خاطب الممدوح بقوله: (الشمس أنت) يقابله قول النابغة: (بأنك الشمس) وكذلك غير في لفظة: (الملوك كواكب) بقول النابغة: (والملوك كواكب)، أي أن الممدوح هو يبين الملوك كالشمس بين النجوم، أما في الشطر الثاني أن الشمس اذا طلعت تخرج بنورها جميع الكواكب، فاخذ ابن زمرك هذا المعنى وتلطف به وذوق، فجعل الشمس وهو ممدوحه يهدي من نوره وعطائه للكواكب أي الملوك.

وقوله أيضاً[١٠]:

[البسيط]

إنَّ الخَلِيفَةَ لَمَّا أَنَّ مِنْ وَصَـــــــــــــــب دَعَا القُلُوبَ إِلَى الأَشْجَانِ وَالكَمَدِ

وَقُلْتُ لِلنَفْسِ: قَرِّي؛ أَنْشَدَتْ مَثَلاً "وَلاَ قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِـــــــــــــــنَ الأَسَدِ"

استدعى الشاعر قول النابغة في مدح النعمان بن المنذر فيقول[١١]:

أُنْبِئتُ أَنّ أبا قابوس أوْعَدَني وَلا قرارَ عَلَى زأرٍ مِنَ الأسدِ

وقد حاكى ابن زمرك في البيت الشعري ما قاله النابغة في بيته الشعري، فأراد الشاعر أن يضفي على نصه شيئاً مما قاله القدامى، فضلاً عن ذلك يبين قدرة أهل الأندلس في الشعر، وأنهم معطاء في الأدب عامة والشعر خاصة، وبهذا التضمين يجعل من النص الأندلسي قيمة أدبية تضاهي ما قاله أهل المشرق، وهنا أراد أن يقول لا يقتصر على شاعر دون آخر، فالخطاب في بيت النابغة كان بينه وبين أبي قابوس ويقوم على الوعد والوعيد، في حين ابن زمرك يخاطب نفسه بهدوء بدون خوف أو تذمر.

ومن وقوله أيضاً[١٢]:

[الكامل]

طَارَدْتُ فِيهَا وَصْفَ كُلِّ غَرِيبَةِ فَنَظَمْتُ شَـــارِدَةَ الَّذِي لَمْ يُنْظَمِ

ودَعَوْتُ أَرْبَـــــــــــــابَ الْبَيَانِ أُرِيهُمُ "كَمْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ"

فالشاعر أراد أن يستثمر ثقافته الأدبية من خلال قول عنترة صاحب المعلقة المشهورة[١٣]:

[الكامل]

هَلْ غَادرَ الشُّعراءُ منْ مُتَردَّمِ أم هَلْ عَرفْتَ الدَّارَ بَعدَ تَوهُمِ

إن استدعاءه لنص عنترة يقوم على قلب المعنى، فعنترة في بيته الشعري يرشد إلى أن الشعراء لم يتركوا لغيرهم شيء يقولونه، وأما ابن زمرك لكي يظهر براعته ومقدرته البيانية عن طريق دعوته لأصحاب البيان في مقابل دعوة عنترة للشعراء، وبين لنا أن الشعراء تركوا أشياء كثيرة وغادروها ولم يقفوا عليها وهذا ما يدل على بيانه وفنه وشعره، وإن استدعاء لقول عنترة يترتب عليه أشياء كثيرة ومنه الوزن الذي

يضغط على الشاعر أثناء الكتابة، وإن هذا التضمين يكشف لنا مدى أعجابه بعنترة وهو سبب جعل يستدعيه في نصه.

ويستمر ابن زمرك في تضمينه لأبيات شاعر آخر من شعراء الجاهلية قوله في غرض التصوف(١٤):

[الطويل]

وَمَنْ كُحِّلَ التَوْفِيقُ بِالنُّورِ عَيْنَهُ وَأَيْقَظَ وُجُودِ مَا سِوَى الحَقِّ فَانِيَا

رَأَى كُلَّ شَيْءٍ مَا خَـــلاَ اللهَ بَاطِلاً وَكُلَّ وُجُودٍ مَا سِــوَى الحَقِّ فَانِيَا

ضمن الشاعر قول لبيد بن ربيعة العامري(١٥):

ألا كُلَّ شيءٍ ما خَلا اللهُ بَاطِلُ وكلُّ نَعيمٍ لاَ مَحالَةَ زَائِلُ

ضمن ابن زمرك صدر البيت من قول لبيد بن ربيعة وهو أيضاً يعارض، فالشاعر عقد مقارنة بين نصه وبين نص عنترة، فابن زمرك يخاطب أبا عاصم والذي يقصد أن الوجود هو شيء فانه لا يبقى أي شيء وانه يذهب، فما نص لبيد الذي تمركز حول موضوع الحكمة وهذه ما تحمل من دلالات التحمل والقدرة على مواجهة الواقع، والشاعر اتكأ على صورة لبيد لكي يخرجه بأجمل صورة، ويبدوا أن نص لبيد أعظم صورة وأجود معنى وأكثر أقناعا من بيت ابن زمرك.

وقوله أيضاً في الوصف(١٦):

[الكامل]

وَرَفَعْتُ فِيهَا الْقَلْبَ بَنْداً خَـــــــــــافِقاً وَأَرِيْتُ لِلعُشَّـــــــــــاق فَضْلَ تَهَمُّمِ

فَأَنا الَّذِي شَابَ الْحَمِاسَةَ بِالْهَوَى لَكِنَّ مِنْ أهواه ضَايقَ مَقْدَمِي

ضمن الشاعر قول عنترة قائلاً(١٧):

إذْ يَتقّون بي الأَسِنَّة لم أرِضمْ عنها ولكنّي تَضَايَقَ مُقدَمي

استدعى ابن زمرك بيت عنترة أيضاً عارضه الذي يقصد به أن اتقيت العدو بترسي إذ جعلت الترس حاجزاً بيني وبينه؛ لذا ابن زمرك اتكأ على النص في الشطر للثاني، ولكن باختلاف بسيط بقول عنترة تضايق تقابل قول ابن زمرك ضايق وأن هذا الزيادة لم تعمل شيء في النص، فائتلاف النص ضمن سياق شعري واحد وحدود دلالية واحدة؛ لذا جعلنا نستدرك قصدية الشاعر في هذا الاستدعاء للنص القديم من مخزونات ذاكرته الثقافية ليسهم في بناء نصه الجديد وإعادة نتاجه، وربما الشاعر يلجأ إلى هذا الاستدعاء لكي يبين قدرته على النظم والسير على ركاب فحول الشعراء.

ومن تضمينه أخر لعنترة(١٨):

[الكامل]

يُذْكى الْكِبَاءُ بِهَا كَأَنَّ تُرفَعُ لِلنَّدَى فَتُرَى الْعَمَائِمُ تَحْتَهَا كَالأَنْجُمِ

وَلَكَ الْعَوالي السُّمْرُ تسْرعَ لِلْعِدَا فَتَخِرُّ صَـــــدْعَى لِلْيَدَيْنَ وَلِلْفَمِ

هنا استدعى قول عنترة(١٩):

هِرَّ جَنيبِك كلّما عطفت ْ لَهُ غَضبى اتَقْاها بالَيدينِ والفمِ

ضمن ابن زمرك بيت عنترة وعارضه أيضاً، ويبدو أن هذا التضمين من ثقافة الشاعر وتعمل على إشباع وجدان الشاعر اللاحق وإغناء تجربته الشعرية، وهذا ما هيأ له جو نفسي وحالة شعورية التي تسعى تحت وطأتها، وبذلك تكون التجربة الخاصة بالشاعر هو السبب الرئيسي الذي جعلته يضمن هذا البيت وليس مجرد محاكاة أو تقليد.

وقوله أيضاً في الوصف(٢٠):

نَقَلُوا الْمَعالِي كَابرا عنْ كَابرٍ كَالْرُّمحِ مُطَـــــردِّ الكُعُوبِ مُقَوِم

وَتَسَنَّمُوا رُتَبَ الْعَلاَءِ بِحَقِّهَا مَا بَيْنَ جَدِّ فِي الْخِلاَفَةِ وَابْنَمِ

ضمن أيضاً قول عنترة(٢١):

جادتْ لهُ كَفَّي بعاجلِ طَعْنَةٍ بمثَقَّفِ صَدْق الكُعُوبِ مُقَوَّمِ

ضمن ابن زمرك بيت عنترة أيضاً وهذا ما يدل على شدة إعجابه بعنترة جعله يستدعي أبياته الشعرية، ولكن ابن زمرك انتفع من معاني النص القديم بعد أن أضفى عليه بعداً جديداً، وكذل أعطى له دلالة معنوية على وفق رؤية أدبية وما يحتوي النص القديم من دلالات، بالقدر جعل يستدعي هذا النص دون غيره.

وقوله أيضاً يخاطب الخطيب أبا محمد عبد الله ذاكر عهد الشباب(٢٢):

[الطويل]

وَإلاَّ فَهَبَ لِي مِنْ قـــــــــــــــــــرَاكَ لمَثْلِهِ فَضَيْفُكَ مَنْهُ بالْتُقَى الطَّاعِمُ الْكَاسِي

حَنَانَيْكَ مَهْمَا جِئْتَ مَجْلِسَ رَحْمَةٍ وَقَدْ حُفَّتِ الأَمْـــــــــــــــــــــــلاَكُ مِنْهُ بِجُلاَّسِ

ويضمن الشاعر ابن زمرك قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر قائلاً فيه (٢٣):

[البسيط]

دَعِ المَكارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتَها وَاقْعُدْ فإنْكَ أَنْتَ الطَاعِمُ الْكَاسِي

ضمّن الشاعر جزئي من الشعر الجاهلي وهذه دلالة على ثقافته الأدبية، وبراعة الشاعر في التوافق بين النصين، أما من ناحية البنية الإيقاعية فقد اختلف النصان من ناحية الوزن فقط، فجاء نص ابن زمرك من البحر الطويل أما نص ابن زمرك من البحر البسيط، ولكن هذا الاختلاف لم يعمل أي شيء في النص، وإنما هذا التغيير جاء مناسباً للغرض الذي قصده الشاعر.

ومن تضمين الشاعر لأشطار الأبيات قوله في وصف(٢٤):

[الكامل]

يَا نَظْرَةً جاذَبْتُهَا أَيْـدِي النَّوَى حَتَّى اسْتَهَلَّتْ أَدْمُعِي بِدِمَـــــــــاءِ

مَنْ لِي بِثَانِيَةٍ تُنَادِي بِالأَسَى "قَدْكَ اتَّئِدْ أَسْرَفْتَ فِي الْغَلواء"

فضمن الشاعر بيت أبو تمام المشهور الذي يمدح محمد بن حسان الضبي قائلاً(٢٥):

[الكامل]

قَدْكَ اتئِبْ أَرْبَيْتَ فِي الغُلَوَاءِ كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائِي

ضمن الشاعر صدر بيته عجزاً لنص بيت أبي تمام، وأخذ النص بلفظه ومعناه مع استبدال كلمة بأخرى تماثله، ويقوم الشاعر في بعض الأحيان يأخذ النص بتمامه مع التقديم والتأخير، ولكن أن يحافظ على التوازن الموسيقي، وهذا التحوير الذي قام ابه ابن زمرك لم يؤثر في بيته الشعري.

وقوله في مدح السلطان الغني بالله[٢٦]:

[الكامل]

يَا سَاكِنِي نَجْدٍ وَمَـــــــا نَجْدٍ سِوَى دَارٍ كَلِفْتُ بِهَا وَنِعْمَ الـــــــــــــدَّارُ

وَإِذَا عَفَتْ مِنْهَا المَعَاهِدُ لَمْ أَقُلْ: لاَ أَنْتِ أَنْتِ ولاَ الدِّيار دِيَـــــــــارُ

ضمن الشاعر قول أبو تمام في مدح أبي سعيد الثغري[٢٧]:

لا أَنتِ أنتِ ولاَ الدِيَار دِيَارُ خُف الْهَوى وَتولت الأَوْطار

استدعى ابن زمرك بيت أبي تمام وهذا ما يدل على ثقافة الشاعر وعمق تجربته الشعرية، فنص أبي تمام في موضوع مدح يقول لقد تغير عهدك واختلف عليك دار الأحبة، إذا ضعف الحب في قلبك ولم يقدم غاية فيه، فابن زمرك ضمنه ولم يغير فيه أي شيء بل ضمنه نصاً، وما يعطي هذا التضمين زخماً معنوياً باعتبار أن النص متصل بقدرة وموهبة أبي تمام، وجعل حلقة وصل فكرية وأدبية لها دور في المرجعية الأدبية.

وقال في المدح[٢٨]:

[البسيط]

لاَمَ العِذَارَ أُنَاسٌ فَوْقَ وَ جْنَتِهِ وَشَبَّهُـــــــــــــوهُ بِلَيْلٍ غَيْرَ مُنْتَقِلِ

فَقُلْتُ ذَاكَ الذِي أَبغِيهِ مِنْهُ لأَنْ أَزُورَهُ وَسَوَادُ اللَّيلِ يَشْفَعُ لِيْ

الشاعر هنا ضمن قول المتنبي[٢٩]:

أزورُهُمْ وَسَوَادَ اللَيْلِ يَشفَعُ لي وأنثني وَبَيَاضُ الصبحِ يُغري بي

إن ابن زمرك كثيراً ما يغير في الألفاظ التي يضمنها لنصوصه، فهذا أخذ صدر البيت وجعله عجزاً، وفي هذا التضمين كثرة التقابلات حيث قابل الشاعر بين السواد والبياض والليل والصبح، فهي تقابل ضدي معنوي، فأن كثرة التقابلات تدل على براعة الشاعر التي تمكنه على خلق تلك التقابل، وعمل ابن زمرك على تغيير الألفاظ فقال المتنبي أزورهم فغير أزوره ،وهذا وما يتلاءم هذا التغير مع الغرض المدح الذي جاء به ابن زمرك لامع غرض الغزل عند المتنبي.

وقوله أيضاً في مدح الغني بالله[٣٠]:

[الطويل]

تَعَـــــــــــــــــوَّدَ لِلْفَتْحِ المُبِينِ عَوَائِداً فَلاَ قَطَعَ الرَّحْمَنُ مَا كَانَ عَوَّدَا

وَحقَ عَلَى الإِسلاَمِ يُنْشِدُ أَهْلَه لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

في هذا البيت تضمين من بيت المتنبي المشهور الذي كان يمدح فيه سيف الدولة قائلاً[٣١]:

[الطويل]

لِكل امرىءٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعودَّا وعادَةُ سيفِ الدّوْلَةِ الطَعْنُ فِي العدا

فالشاعر ضمن عجز البيت لمتنبي وذلك لتحقيق تواصلاً إقناعياً تجربته الذاتية وبين التراث العربي، فالتضمين واضح وغرض الشاعر هو المدح، وابن زمرك وظف نص المتنبي من أجل إقناع المتلقي في تفسير حدث الممدوح التي تعود على فتح البلدان، فمعرفة المتلقي ساعدته على تحديد مقاصد الشاعر وغايته الحجاجية.

ومن الأَغراض التصوفية قائلاً[٣٢]:

[البسيط]

عُـــــــــــــــــــــــذْراً إِلَيْكَ فَمَا تُسْعِدُنِي وَلاَ الْعِبَارَةُ فِي الْتَحْقِيق تُقْنِعُنِي

كَفَى بِكُرْهِيَ قَوْلِي إِنَّنِي رَجُلٌ (لَوْلاَ مُخاطَبتي إِيَّـــــاكَ لَمْ تَرَنِي)

فهذا التضمين واضح لبيت المتنبي قائلاً فيه[٣٣]:

كَفَى بِجِسمي نُحُولاً إِنَّنِي رَجُلٌ (لَوْلاَ مُخاطَبتي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي)

الشاعر في هذا التضمين أراد أن ينقل إلينا حالة التي يمر بها من خلال استدعاؤه لقول المتنبي، فنقل الشاعر حالته لمتلقي من خلال هذا الاستدعاء، وفق الشاعر في تضمينه لقول المتنبي واتضح هذا التضمين من خلال التطابق من ناحية الوزن والقافية، أما من ناحية البنية الموضوعية فقد اختلفا النصين فابن زمرك كان غرض التصوف ولكن المتنبي في غرض الغزل.

فالشاعر ضمن أكثر بيت للمتنبي وهذا ما يدل على أن الشاعر لكثرة إعجابه لمتنبي؛ لذلك جعل يضمن أكثر من بيت.

ومن تضمين لشاعر أندلسي قوله في العِذَارِ[٣٤]:

[الطويل]

أُعِيذُكَ مِنْ خَدٍّ إِذَا اخْضَرَّ آسُهُ ذَوَى وَرْدُهُ فَـــــــــــآزْوَرَّ عَنْهُ المُجَانِبُ

لَهُ وَجْنَةٌ قَدْ أَذكرتْ مَثَلاً جـــــــرَى إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ حَفَّ جَانِبُ

استحضر الشاعر قول ابن عبد ربه في وصف الدنيا[٣٥]:

[الطويل]

إلاَّ أنما الدّنْيا نضـــــــــــــــــــــــــــــارةُ أيكةً إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ حَفَّ جَانِبُ

فالشاعر ضمن قول ابن عبد ربه دون تحوير بالألفاظ النص الذي ضمنه لشعره، جاء بهذا النص من دون تغيير أيضاً من جانب الوزن والقافية ولكن اختلفا كلا النصين من البنية الموضوع، فابن زمرك جاء بوصفه في العذار ولكن ابن عبد ربه في وصف الدنيا، ولا يؤثر هذا في النص وانا يوحي لنا الكثير من الدلالات والصور جراء هذا التحوير.

ثانياً: التضمين الإشاري وغير الإشاري:

هذا النوع من التضمين من الأكثر الأنواع استخداماً لدى شعراء الأندلسيين، لبيان ما أخذه من شعراء المشارق، ويتضح هذا التضمين خلال نتاجاتهم على شكل أفكار وألفاظ ومعاني، وهذا ما يعطي للشعراء أكثر حرية في التعامل مع نصوص لشعراء الجاهلية والإسلاميين، وذلك يعيدها الشاعر بصيغة جديدة ورؤى فنية تتوافق مع غرضهم الشعري.

ومن تضمينه الإشاري قوله يتشوق ويذكر عهود الصحبة(٣٦):

[الطويل]

سِوَى صَادِحٍ فِي الأَيْكِ لَمْ يَدْرِ ما الْهَوَى ... وَلَكِنْ دَعَا مِنِّي الشُّجُونَ عَلَى وَعْدِ

فَهَلْ عِنْدَ لَيْلَى، نَعَّمَ اللهُ لَيْلَها، بِأَنَّ جُفُونِي مَا تَمَلُّ مِنَ السُّهْدِ

أشار الشاعر إلى قول قيس بن الملوح(٣٧):

[الطويل]

يَقولونَ : لَيْلَى بالْعِراق مَرِيضَةٌ ... فَما لَكَ لا تَضْنَى وأَنْتَ صَديقُ

ضمن ابن زمرك بيت الشعري مجنون ليلى المعروف بشاعر الغزل، فالشاعر جاء هذا البيت في غرضه نفسه، فابن زمرك عندما أشار إلى هذا التضمين لكي يعبر عن أحاسيسه وتجاربه الذاتية، فضلاً عن ذلك ما تحمله من دلالات عميقة من خلال مشاعره وأفكاره.

وقال في مدح الغني بالله(٣٨):

[الكامل]

يَا عَاذِلُ المُشْتَاق فِي نَفَسِ الصَّبَا ... رِفْقاً فَفِي طَيِّ الصِّبَا أَسْرَارُ

لَمْيَاءُ تُعْدِي عَرْفَهَا مِنْ طِيبِهَا ... وَتُعِيرُهَا أَنْفَاسَهَا الأَسْحَارُ

في هذا النص أشار ابن زمرك إلى قول تأبط شراً(٣٩):

[البسيط]

بَلْ مِنْ لِعَذَّالَةٍ خَذَّالَةٍ أَشِبٍ ... حَرَّقَ باللَّوْمِ جِلْدِي أَيَّ تَحْرَاقِ

ضمن الشاعر بيت تأبط الشاعر الجاهلي الذي كان الحديث عن العذل، وذلك سبب المعاناة والمكابدة التي يعاني منها العاشق، وكذل يتحدث عن الشكوى من المرض الذي سببه هو العشق والشكوى من طول الليل، فالتضمين بين نص الشاعر الجاهلي وابن زمرك كان على مضمون واحد، ولكن ابن زمرك كان يعتمد عليها من أجل يعرف البيت الشعري ومضمونه، ليحمل المتلقي دلالات ومعاني.

ومن قوله أيضاً في مدح الغني بالله(٤٠):

[الكامل]

هِي نَفْحَةٌ هَبَّتْ مِنَ الأَنْصَارِ ... أَهْدَتْكَ فَتْحَ مَمَالِكِ الأَمْصَارِ

فِي بِشْرِهَا وَ بِشَارَةَ الدُّنْيَا بِهَا ... مُسْتَمْتَعُ الأَسْمَاعِ وَ الأَبْصَارِ

أشار الشاعر إلى قول حسان بن ثابت في مدح حسان النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) ويهجو أبا سفيان الذي كان قد تعرض للرسول وأصحـــــــــابه في الفترة التي سبقت إسلامه[٤١]:

[الوافر]

وَقَال الله: قَـــــــــــــــــدْ يَسّرْتُ جُنْداَ   هُمُ الأَنْصَـــارُ عُرْضَتُها اللّقَاءُ

لَنَا فـــــــــــــــــــي كُلّ يَوْمِ مِنْ مَعَدٍّ   سِبابٌ ، أوْ قِتالٌ ، أو هِجاءُ

استدعى ابن زمرك في هذا البيت نص حسان بن ثابت الذي كان الغرض المدح، والذي كان يتحدث عن الأنصار وهم أنصار النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي ناصروه وكانت غايتهم لقاء الأعداء، فابن زمرك ضمن هذا البيت ولكن بالمعنى وغير في بعض الألفاظ لكي يواكب حالته النفسية، فالشاعر جاء بها بهذا التضمين ليفتخر بمكانة الممدوح في الأبيات التي كان يهنئ بها السلطان.

ومن تضمين الإشاري في مدح الغني بالله قائلاً[٤٢]:

[الكامل]

بُشْرَى بِهَا أَعْـــــــــــــــــلامُ مُلْكِكَ تُنْشَرُ   وَسُيُوفُ نَصْرِكَ فِي الْمَعَاقِلِ تُشْهَرُ

طَلَعَ البَشِيرُ بها عَلَى أَهْـلَ الهُدَى   فَمُهَلِّلٌ لِطُلُــــــــــــــــــــــــــــوعِه ومُكَبِّرُ

تُتْلَى عَجَائِبُهَا لِكُلِّ مُـــــــــــــــــــــــــــوَحِّدٍ   فَتَكَادُ أَعْوَادُ المَنَابِرِ تَزْهَـــــــــــــــــــــــــرُ

استحضر الشاعر قول البحتري يمدح المتوكل ويصف خروجه يوم العيد[٤٣]:

ذَكَروا بِطَلْعَتِكَ النَّبِي فَهَلَّلوا   لَمَّا طَلَعَتْ من الصُّفوفِ و كَبَّروا

ضمن الشاعر قول البحتري ولكن كان التضمين بالمعنى، فالبحتري لم ينطلق دفاعاً عن الدين أو العقيدة كما يظهر في قصائد ابن زمرك، ولكن في هذا البيت بأنهم امعنوا النظر إليك فرحبوا بك حتى برزت لهم، بل كان يمدح من أجل العطاء، وان ذكر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وجده مناسباً؛ لذلك ضمن قول البحتري ليستمد معانيه ليمدح به السلطان الغني بالله.

وقوله أيضاً في المدح[٤٤]:

[الطويل]

وَكَمْ بَيْتِ مَالٍ فِي الْجِهَادِ بَذَلْتَهُ   وَأَقْرَضْتَ مِنْهُ اللهَ مَا اللهُ يَعْلَمُ

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَـــــــــــدْ جِئْتَ فِيهَا بِلَيْلَةٍ   مِـــــنَ النَّقْعِ فِيهَا لِلأَسِنَّةِ أَنْجُمُ

هنا أشار إلى قول بشار بن برد[٤٥]:

[الطويل]

كَأنَّما النَّقْعُ فَوْقَ أَرْؤُسِهِمْ   سَقْفٌ كَواكبُه البِيضُ المَباتيرُ

الشاعر هنا ضمن بيت بشار ولكن كان تضمينه بالمعنى وليس نصياً؛ لذلك قصر ابن زمرك الكثير من بيت بشار واستطاع أن يضمنه بالمعنى فقال من النقع فهو يقابل قول بشار مثار النقع، غير أن ابن زمرك ينقل اللفظة ويحورها وكذلك المضمون التي تحملها طاقات تتسع إلى أبعاد ومضامين واسعة.

ومن قوله أيضاً(٤٦):

[الكامل]

وَالَى عَلَيْكَ بِهَا الْكـــــــــؤُوسَ وَرُبَّمَا يَسْقِيكَ مِنْ كَأسِ الْفُتُورِ إِذَا فَتَرْ

سُكْرُ النَّدَامَى مِنْ يَدَيْهِ وَ لَحْظِهِ مُتَعَاقِبُ مَهْمَا سَقَى وَإِذَا نَظَـــــــــــــــرْ

أشار الشاعر هنا إلى قول أبي نواس قائلاً(٤٧):

[البسيط]

تَسْقِيك من عِينها خمراً، ومن يدها خمراً فما لك من سُكْرين من بُدِّ

استدعى ابن زمرك نص أبي نواس في حديثه عن خمرة؛ لذا بدا يتفلسف في وصفها وأبدع في التصوير، وجعل الخمرة تسقيه روضه ويضاف عليه الحياة ويجعلها كائناً حياً، فالشاعر ابن زمرك عندما ضمن هذا البيت الشعري زاد على نصه وجعله الفكرة أكثر وضوحاً وشرحاً، فأضاف فكرة جديدة وهي التتابع في الشعر في يد مرة وفي اللحظ مرة أخرى، وهذه الزيادة لم تكن عند ابن زمرك بل سبقوه من الشعراء في هذه الزيادة.

ومن تضمينه أيضاً(٤٨):

[الطويل]

لَعَلَّ الْصَّبَا إِنْ صَافَحَــتْ رَوْضَ نَعْمَانِ تُوَدِّي أَمَانَ الْقَلْبِ عَنْ ظَبْيَةِ الْبَانِ

ابن زمرك هنا أشار وعارض قول القاضي المزدغي(٤٩):

يا فاسُ حيّا الله أرضك مِن ثَّرى وسقاك من صَوْب الغمامِ المُسْبِلِ

استدعى الشاعر نص القاضي المزدغي في مدح مدينة فاس لبعض العلماء، ولكن وفق الشاعر في هذا النوع من التضمين وفي نفس الوقت تعتبر معارضة داخلية وليست تامة وإنما غير تامة؛ لان غير في بعض الألفاظ وحورها وأشار إليها بالمعنى.

ولاحظت أن هذا التضمين ورد بكثرة في أشعاره وذلك؛ لأن شاعر عاش في العصور المتأخرة وانه هذا العصر كثروا استخدموا هذا النوع من التضمين؛ لذا جاء بكثرة في شعره.

الخاتمة:

استطاع ابن زمرك أن يترك كماً وفيراً من النتاج الشعري الذي عبر عن العديد من جوانب الحياة المختلفة وفي أغراض مختلفة؛ لذا نهل في الكثير منها من الشعراء المشارقة من العصر الجاهلي ووصولاً إلى الشعر الأندلسي، ووجدت تضمينه لشعراء العصر العباسي بكثرة، وهذه دلالة على اطلاعه ومعرفته بالموروث الشعري العربي، فكان تضمينه أما شطر بيت أو بيت كامل أو تضمين أشاري.

الهوامش:

(١) ينظر: البلاغة والتطبيق، د. احمد مطلوب وكامل حسن البصير، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م: ٤٦٠.

(٢) استيحاء التراث في الشعر الأندلسي " عصر الطوائف والمرابطين " (٤٠٠-٥٣٩)، إبراهيم منصور محمد الياسين، أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، نقلاً عن القول الشعري منظورات معاصرة، د. رجاء عيد، منشأة المعارف الإسكندرية: ٢٣٢.
(٣) استيحاء التراث في الشعر الأندلسي " عصر الطوائف والمرابطين " (٤٠٠-٥٣٩)، إبراهيم منصور محمد الياسين: ١٢٦، نقلاً عن لغة الشعر قراءة في الشعر العربي، رجاء عيد، منشاة المعارف الإسكندرية، ١٩٨٥م: ٢٩.
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (٥٤٢هـ)، ت: إحسان عباس، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧ه-- ١٩٩٧م: ١٢.
(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (٣٩٠-٤٥٦ه)، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت: ٨٥/٢.
(٦) ديوان ابن زمرك: ٤٥٧.
(٧) ديوان سقط الزند، أبو العلاء المعري، شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤١٨ه-١٩٩٨م: ٢٢٨.
(٨) ديوان ابن زمرك: ٨٦.
(٩) ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤-٢٠٠٤م: ٢٦.
(١٠) ديوان ابن زمرك: ١١٤.
(١١) ديوان النابغة الذبياني:٢٦.
(١٢) ديوان ابن زمرك: ٤٨٧ .
(١٣) ديوان عنترة بن شداد' شرح معانيه ومفرداته حمدو طماس، ط٢، دار المعرفة، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م: ١١.
(١٤) ديوان ابن زمرك: ٢١٢.
(١٥) ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به حمدو طماس، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥هـ-٢-١٤م: ٨٥، شرح ديوان لبيد بين ربيعة العامري، قدم له وشرحه إبراهيم جزيني، دار القاموس الحديث، بيروت: ١٣١.
(١٦) ديوان ابن زمرك: ٤٨٤.
(١٧) ديوان عنترة:١٩.
(١٨) ديوان ابن زمرك: ٤٨٥.
(١٩) ديوان عنترة: ١٥.
(٢٠) ديوان ابن زمرك: ٤٨٥.
(٢١) ديوان عنترة: ١٧.
(٢٢) ديوان ابن زمرك: ٢١٠.
(٢٣) ديوان الحطيئة من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، شرح أبي سعيد السكري، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م: ١٠٨.
(٢٤) ديوان ابن زمرك: ٣٦٣.
(٢٥) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠١م: ٢١/١.
(٢٦) ديوان ابن زمرك: ١٣٨.
(٢٧) ديوان أبي تمام: ٢٧٣.
(٢٨) ديوان ابن زمرك: ٢٣٨.
(٢٩) ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح العلامة أبي البقاء عبد الله العكبري البغدادي، ضبط نصوصه وأعد فهارسه قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، ط١، دار بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤١٨ه-١٩٩٧م: ١٦٠/١.
(٣٠) ديوان ابن زمرك: ١٣٣.
(٣١) ديوان أبي الطيب المتنبي: ٢٦٢/١.
(٣٢) ديوان ابن زمرك: ٣١٨.
(٣٣) ديوان أبي الطيب المتنبي: ٥٢٩/١.
(٣٤) ديوان ابن زمرك: ٩٧.
(٣٥) ديوان ابن عبد ربه، جمعه وحققه وشرحه د. محمد رضوان الداية أستاذ بجامعة دمشق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩ه-١٩٧٩م:٢١.
(٣٦) ديوان ابن زمرك: ٣٨١.
(٣٧) ديوان مجنون ليلى، اعتنى به وقدم له عبد الرحمن المصطاوي، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥ه-٢٠٠٥م: ١٩٩.
(٣٨) ديوان ابن زمرك: ١٣٨.
(٣٩) ديوان تأبط شراً، إعداد وتقديم طلال حرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م: ٥٠.
(٤٠) ديوان ابن زمرك: ٤٠٣.
(٤١) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، دار الأرقم أبي الأرقم، بيروت: ١٢-١٣، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري شرح وتحقيق جمانة يحيى الكعكي، ط١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م: ١١-١٢.

(٤٢) ديوان ابن زمرك: ٤٣.
(٤٣) ديوان البحتري، شرح وعلق عليه الدكتور محمد التونخي، دار الكتاب، بيروت، ١٤٠٤هـ-٢٠٠٤م: ٥٠٢/١.
(٤٤) ديوان ابن زمرك: ٤٨٨.
(٤٥) ديوان بشار بن برد، قدم له وشرحه الدكتور صلاح الدين الهواري، دار الهلال، بيروت،١٩٩٨م: ٧٠/٤، وديوان بشار بن برد، قرأه وقدم له الدكتور إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م: ٤٢٦.
(٤٦) ديوان ابن زمرك: ٤١٠.
(٤٧) ديوان أبي نواس، شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤١٨ه-١٩٩٨م: ١٧١، ديوان أبي نواس برواية الصولي، ت: الدكتور بهجت عبد الغفور الحديثي، ط١، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ١٤٣١ه -٢٠١٠م: ٨٨.
(٤٨) ديوان ابن زمرك:٤٩٣.
(٤٩) نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: الدكتور إحسان عباس،دار صادر، بيروت: ١٢٨/٧.

المصادر والمراجع:

- ☒ استيحاء التراث في الشعر الأندلسي " عصر الطوائف والمرابطين " (٤٠٠-٥٣٩)، إبراهيم منصور محمد الياسين، أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، نقلاً عن القول الشعري منظورات معاصرة، د. رجاء عيد، منشأة المعارف الإسكندرية.
- ☒ استيحاء التراث في الشعر الأندلسي " عصر الطوائف والمرابطين " (٤٠٠-٥٣٩)، إبراهيم منصور محمد الياسين: ١٢٦، نقلاً عن لغة الشعر قراءة في الشعر العربي، رجاء عيد، منشاة المعارف الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- ☒ البلاغة والتطبيق، د. احمد مطلوب وكامل حسن البصير، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- ☒ ديوان ابن عبد ربه، جمعه وحققه وشرحه د. محمد رضوان الداية أستاذ بجامعة دمشق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩ه-١٩٧٩م.
- ☒ ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح العلامة أبي البقاء عبد الله العكبري البغدادي، ضبط نصوصه وأعد فهارسه قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، ط١، دار بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤١٨ه-١٩٩٧م.
- ☒ ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠١م.
- ☒ ديوان أبي نواس برواية الصولي، ت: الدكتور بهجت عبد الغفور الحديثي، ط١، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ١٤٣١ه - ٢٠١٠م.
- ☒ ديوان أبي نواس، شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤١٨ه-١٩٩٨م.
- ☒ ديوان البحتري، شرح وعلق عليه الدكتور محمد التونخي، دار الكتاب، بيروت، ١٤٠٤هـ -٢٠٠٤م.
- ☒ ديوان الحطيئة من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، شرح أبي سعيد السكري، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- ☒ ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤-٢٠٠٤م.
- ☒ ديوان بشار بن برد، قدم له وشرحه الدكتور صلاح الدين الهواري، دار الهلال، بيروت،١٩٩٨م.
- ☒ ديوان بشار بن برد، قرأه وقدم له الدكتور إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ☒ ديوان تأبط شراً، إعداد وتقديم طلال حرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.
- ☒ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، دار الأرقم أبي الأرقم، بيروت.
- ☒ ديوان سقط الزند، أبو العلاء المعري، شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع، ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤١٨ه-١٩٩٨م.
- ☒ ديوان عنترة بن شداد: شرح معانيه ومفرداته حمدو طماس، ط٢، دار المعرفة، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.
- ☒ ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به حمدو طماس، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥هـ-٢-١٤م.
- ☒ ديوان مجنون ليلى، اعتنى به وقدم له عبد الرحمن المصطاوي، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥ه-٢٠٠٥م.
- ☒ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (٥٤٢هـ)، ت: إحسان عباس، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧ه-- ١٩٩٧م.
- ☒ شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري شرح وتحقيق جمانة يحيى الكعكي، ط١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ☒ شرح ديوان لبيد بين ربيعة العامري، قدم له وشرحه إبراهيم جزيني، دار القاموس الحديث، بيروت.
- ☒ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (٣٩٠-٤٥٦ه)، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت.
- ☒ نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت.